تجليات"الجزاء أثر طبيعي في العمل"

لمحمد رشيد رضا من خلال تفسيره المنار

ط. كريب يونس/د.بلخشير بومدين

جامعة أبوبكر بلقايد – تلمسان–

تلخيص:

عمَد محمد رشيد رضا–رحمه الله–إلى إبراز جملة من السنن الكونية في تفسير–المنار–من جملتها–الجزاء أثر طبيعي في العمل–وفرَّق في تفسيره بين الجزاء الطبيعي الذي يخضعُلقانون السببية،وبين الجزاء الذي يشبِهُ جزاءَ الحكام على رعاياهم وهو ما يُسَمَّى بالجزاء الوضعي.

والقاعدة هذه تختلف عن قاعدة "الجزاء من جنس العمل" ،حيث أن الأولى تشمل كل الجزاء من جنسه ومن غير جنسه،والثانية تختص بالجزاء الذي هو من مثل العمل.

ومن أمثلة الجزاء الطبيعي الدنيوي: الرعبُ و الإركاس وإدالة الأعداء،ومن أمثلة الجزاء الأخروي الطبيعي إحباط عمل المشرك وتفاوت دركات أصحاب الجحيم وغيرها، فهذا كله جزاءٌ طبيعي ليس من قبيل جزاء الحكَّام لرعاياهم كما قد يتوهَّم البعضُ.

والقاعدة هذه تكمنُ أهميتها في إزالة الغرور عن بعض الناس الذين يرومون سبيلَ العز والسؤدد والتألُّق بغير السبيل الطبيعي الذي جعلَه الله يوصلُ إلى ذلك، ومن أراد تجنُّب العقوباتِ فعليه أن يكُفَّ نفسَه عن الأعمالِ التي توقعُ صاحبها في العقوبة،كما في القاعدة أيضا رَدٌّ على بعض الطوائف كالجبرية.

Summary: manifestations of "natural impact on criminal action" for Muhammad Rashid rida through interpretation of Al-Manar

was Muhammad Rashid rida-God's mercy-the highlight of cosmic interpretation of norms-Al Manar-among others-box effect normal work-and a difference in interpretation between the natural sanction that is subject to the law of causality, and the box-like kicks rulers on their subjects and so-called positive sanction. This rule differs from the "box of sex work", so that each box of first sex and non-sex, second to the box which is like work. Examples of natural earthly reward: terror and alarkaswadalh enemies, examples of box natural foil work ultimately ground mushrik and abysses of hell and other owners, it's all natural no penalty kicks to their subjects as rulers had some fancy. This rule is important in removing vanity about some people who wish for the good old and wish success and glamour without the natural way God made to it, and wanted to avoid sanctions, it must stop himself from the business owner in a sentence, as in rule also responded to some communities as a constraint

"

مقدمة:

الحمد لله أراد ما العبادُ فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو أراد أن يطيعوه جميعا لأطاعوه ،ثم الصلاة والسلام التَّامَّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فإن خيرَ ما أُفنيت فيه الأعمار،وأُنهكت في سبيل تحصيله الأجسامُ هو فهمُ كتاب الله تعالى ،فلهذا تبارى السادةُ العلماء ورثةُ الأنبياء أيُّهم أحسن عملا في بيان معانيه، وأعمق غوصا في استخراج دُرره من مبانيه ، فكان عطاءُ ربك غيرَ محظور لمن أتى الأبواب من بيوتها من هؤلاء الصفوةِ لمن أراد نفعَ نفسِه ثُمَّ أُمَّتِه من بعدُ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وإن الإمام- محمد رشيد رضا-رحمه الله تعالى-من أجلِّ السادة العلماء الذين عُنوا باستخراج السنن الإلهية حين تفسيرهم للقرآن، حتى صار رشيد رضَا قدوة الباحثين الذين جعلوا السنن الإلهية موضوعَ دراستهم [1]،حيث إنه ثمَّن تفسيره بِعِدَّة قواعدَ وسُننٍ كونية، ومن أهم القواعد والسنن التي ضمَّنها السيد رشيد رضا تفسيرَهُ المنار ، قاعدةُ "الجزاء أثر طبيعي للعمل"، وقد اعتنى- رحمه الله-بهذه المسألة أيَّما عناية ،وربطها بتفسير كثيرٍ من الآيات.

وتكْمُنُ أهمِّيةُ الموضوعِ في إبراز جُهودِ رشيد رضا وإضافته النوعية للتفسير، والتنصيص على السننِ الإلهية الكونية ، والاستدلال عليها من نصِّ القرآن، وكون القرآن جاء لسعادة البشر في الدارين.

ولما رأيت المسألة على أهميتها قد أغفلتها أقلامُ الباحثين ،وتقاصرت دونَها جهودُالمفكرين،وهذا فيما علمتُ من دراسات السابقين ،عمَدتُإلى تفسيره محاولا إبرازها من خلاله،وسَرْد نماذجَ بما يُظهرُ اعتناءه بها.

ويهدفُ البحثُ إلى التنويهمن جهة بفضلِ تفسير المنار،ومن جهة بفضلِ صاحبه رشيد رضا ،خاصةً وأنه من المفسرين المعاصرين ،مما يُعطي لتفسيره قيمةً عظمى،كما يهدف البحث إلى التأكيد على عناية رشيد رضا بالسنن الإلهية التي منها قاعدة البحث.

هذا ولعل اللهَ أن يُيَسِّرَ لمن يجعلُه مشروعا عظيما بقدر أهمية المسألة في إصلاح حال المسلمين،فاستقصاءُهذه القاعدة من جميع تفسيرهاأكبرُ من أن تحيط به مقالة .

فكان هذا البحث يحاول الإجابة عن ما يلي:ما المقصود بالقاعدة عند الإمام رشيد رضا؟ وما مدى عناية رشيد رضا بها ؟ وهل تشمل هذه القاعدةُ الأممَ والأفرادَ على حدٍّ سواءٍ؟ وما هي نماذج الجزاء على العمل في الدنيا وفي الآخرة؟ وما أهمية القاعدة في إصلاح حال الفرد والمجتمع ككل؟

المقصود بالقاعدة عند رشيد رضا:

بيَّن رشيد رضا رحمه الله المعنى الذي يريده من القاعدة التي بصدد البحث فيها، لهذا سنورد أربعة نصوص من أقواله فيها نستخرج مقصوده منها ،إذ ما شرحه منها في موضع ربَّما أغفله في موضع آخر.

فقال-رحمه الله-في موضع أولٍ :" وَهِيَ أَنَّ الْجَزَاءَ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِلْعَمَلِ، أَيْ إِنَّ لِلْأَعْمَالِ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ الْعَامِلِ تُزَكِّيهَا فَتَكُونُ بِهَا مُنَعَّمَةً فِي الْآخِرَةِ، أَوْ تُدَسِّيهَا فَتَكُونُ مُعَذَّبَةً فِيهَا بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ – تَعَالَى –، فَكَأَنَّ الْأَعْمَالَ نَفْسَهَا تَثُوبُ وَتَعُودُ، وَلَيْسَ – أَيِ الْجَزَاءُ – أَمْرًا وَضِيعًا كَجَزَاءِ الْحُكَّامِ بِحَسَبِ قَوَانِينِهِمْ، وَشَرَائِعِهِمْ"[2]

وقال أيضا في موضع ثانٍ:" فَعِقَابُ اللهِ – تَعَالَى – لِلْمُذْنِبِينَ هُوَ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا تُحْدِثُهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَكَمَا أَنَّ السُّكْرَ يُحْدِثُ فِي الْبَدَنِ أَمْرَاضًا يَتَعَذَّبُ صَاحِبُهَا بِهَا فِي الدُّنْيَا يُحْدِثُ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الشُّرُورِ وَالْخَطَايَا أَمْرَاضًا فِي الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ يَتَعَذَّبُ بِهَا صَاحِبُهَا فِي الْآخِرَةِ"[3]

ثم قال في موضع ثالث :"الْعِقَابَ الْإِلَهِيَّ لِلْأَفْرَادِ وَلِلْأُمَمِ نَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) الْعِقَابُ بِمَا تَوَعَّدَ تَعَالَى بِهِ عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَمُعَانَدَتِهِمْ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ عِقَابِ الْحُكَّامِ لِرَعَايَاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ شَرَائِعِ أُمَّتِهِمْ وَقَوَانِينِهَا وَنُظُمِهَا . (وَثَانِيهِمَا) الْعِقَابُ الَّذِي هُوَ **أَثَرٌ**

طَبِيعِيٌّلِلْجَرَائِمِ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا يُعَاقَبُ بِهِ الْمَرِيضُ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ طَبِيبِهِ فِي مُعَالَجَتِهِ لَهُ مِنَ الْحَمِيَّةِ وَالِاقْتِصَارِ عَلَى كَذَا مِنَ الْغِذَاءِ ، وَالْتِزَامِ كَذَا مِنَ الدَّوَاءِ"[4] .

وقال رحمه الله في موضع رابع:"وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي يُصِيبُ الْأُمَمَ الَّتِي فَسَدَتْ أَخْلَاقُهَا ، وَسَاءَتْ أَعْمَالُهَا ، وَكَابَرَتِ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ ، وَأَلِفَتِ الْفَسَادَ وَالظُّلْمَ ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : عَذَابٌ هُوَ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** اجْتِمَاعِيٌّ لِلْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمُبْطِلُونَ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، وَهُوَ خُذْلَانُ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْإِفْسَادِ ، وَانْكِسَارُهُمْ ، وَذَهَابُ اسْتِقْلَالِهِمْ بِنَصْرِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَالْعَدْلِ عَلَيْهِمْ ، وَتَمْكِينِهِمْ مِنْ رِقَابِهِمْ ، وَدِيَارِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ ، لِيَحُلَّ الْإِصْلَاحُ مَحَلَّ الْإِفْسَادِ ، وَالْعَدْلُ مَكَانَ الظُّلْمِ"﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾هود: [102]،وَعَذَابٌ لَا يَكُونُ **أَثَرًا طَبِيعِيًّا** ، بَلْ يُسَمَّى سُخْطًا سَمَاوِيًّا كَالزِّلْزَالِ ، وَالْخَسْفِ ، وَالطُّوفَانِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْجَوَائِحِ الْمُدَمِّرَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِبَعْضِ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ ، وَكَذَّبُوهُمْ ، وَآذَوْهُمْ"[5]

فمن خلال هذه النصوص الأربعة نخلص إلى ما يلي:

جعل الجزاءَ على ضربين: فمنه جزاء طبيعي يخضع لقانون السَّبَبِيَّةِ، ومنه جزاءٌ وضعي ليس طبيعيا من قبيل جزاء الحكام للمخالفين وهو الذي سمّاه سُخْطا سماويًا،كعقوباته بالزلازل والبراكين.

كما عدَّ القاعدةَ جاريةً على حسب سنة الله ،وسُنَّة الله لا تَتَحوَّل فيكون الجزاء فيها مطردا معلوما،كما تطَّرد أمراض أهل التدخين وأهل الخمر الذين يُعانون نفس الأوباء، ويشبهه حال المريض حين لا ينتهي عمَّا يكفه عنه الطبيب ، فيصيبه من الألم بقدر ما ابتعد عن وصاية الطبيب.

و قرَّب الشيخُ المقصود بالقاعدة وجلَّاه ،حينَ شبَّه جزاء اللهِ المذنبين بحال السُّكر الذي له أمراض طبيعية تنجم عنه لا تتخلَّف، فكذلك عقاب الله لا يتخلَّف لمن تلوَّثت نفسه بشؤم هذه المعصية، فيكون العقاب في الآخرة بقدر ما أحدثه الشر من الدنس في نفسه.

فمما سبق نرى أن المقصود بالقاعدة عند الشيخ :هي تلك العقوبات التي رُتِّبت ترتيبا طبيعيا على الأعمال تحصل به ،كحصول المسَبَّب بالسبب.

وهي من جنس ما يعاقبُ اللهُ به أصحابَ التدخين بتسلط أمراض القلب عليهم، فتكون عقوباتٍ دنيويةً طبيعيةً، ورتب عليها في الآخرة عقوباتٍ طبيعيةً أيضا، تكون نتيجةً لما أحدثه شربُ الدخان في نفس المدخِن من الدنس والتدْسية،حيث يتضح أنه لو استرسل المدخنُ فترة من الزمن على التدخين لا يسلم فيها أمثالُه من الأمراض عادةً ،فإن الآفاتِ تصيبه حتى ولو تاب من ذنبه، فيرتفع عنه عذاب الآخرة بالتوبة دون عذاب الدنيا،فإنه أثر طبيعي لتلك المعاصي.

وقد ذكر الشيخ عذابا ثالثا ولَّى عهدُه،وانقرضَ زمانه، فقال:" **هُنَالِكَ نَوْعٌ ثَالِثٌ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَدِ انْقَضَى زَمَانُهُ بِخَتْمِهِمْ بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ**"[6]

اعتناء رشيد رضا ببيان القاعدة:اعتنى بعض أهل العلم بتوظيف هذه السنة متى أمكنهم ذلك،من ذلك ما أورده أبو بكرالجزائريعند تفسيره لقوله تعالى **بِهِۦ** چ **مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ** چ[النساء: 133]، حيث قال في هداية الآيات: "الجزاء **أثر طبيعي** للعمل" وهو معنى قوله **تَعَالَى**: چ **مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ** چ[النساء: 133][7]، وممن اهتم بها الشيخ المراغي رحمه الله أيضا[8]،لكن الشيخ رشيد رضا أوْلى أهميةً بالغةلهذه المسألة التي طفَح بها تفسيرُه، وظهر فيها ظهورا بيِّنا تعبيُره،فإنه قد قال"كُلُّ ذَلِكَ يُؤَيِّدُ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي أَخَذْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَإِثْبَاتَهَا، وَكَرَّرْنَا الْقَوْلَ فِيهَا بِعِبَارَاتٍ، وَأَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ، وَهِيَ أَنَّ الْجَزَاءَ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ**لِلْعَمَلِ"[9].

الفرق بين قاعدة"الجزاء من جنس العمل"وقاعدة" الجزاء أثر طبيعي في العمل":

يظهرُ للباحث بينما فرقٌ لطيف بينهما،القاعدة الأولى يقصدون بها أن الجزاء يكون مماثلا للعمل،فمن عقَّ أباه عقَّه بنُوه ،وهكذا...قال ابن القيم:" يَكُونُ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَمِثَالِهِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْجَزَاءُ مُمَاثِلًا لِلْعَمَلِ مِنْ جِنْسِهِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ أَقَالَ نَادِمًا أَقَالَهُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..."[10]،فيكون العملُ هو نفسه الجزاء فهو يماثله،أما القاعدة الثانية فتختصُّ بنتائج العمل ومخلفاته الطبيعية كيفما كانت العقوبة من جنسها ومثالها ،أم ليست من جنسها ومثالها فهي أعمُّ من الأولى.

اطراد القاعدة في عقوبات الأمم:

يرى الشيخُ–رحمه الله–القولَ بأن ذنوب الأمة إذا ظهرت لا بد أن يظهر **أثرها الطبيعي** في الدنيا بالعقوبات بشكل مطرد فمما قاله مما يدل على ذلك ما يلي:

" وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ ذُنُوبَ الْأُمَمِ تَتْبَعُهَا عُقُوبَتُهَا فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهَا **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لَهَاأَنَّ عَذَابَ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَامُطَّرِدٌ"[11]

وقال أيضا"عِقَاب الْأُمَمِ وَبَعْض عِقَابِ الْأَفْرَادِ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ**لِذُنُوبِهِمْ ، فَالْأُمَمُ وَالشُّعُوبُ الْبَاغِيَةُ الظَّالِمَةُ لَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ سُلْطَانُهَا وَتَزُولَ دَوْلَتُهَا"[12].

وممَّا مثَّلَه لإثبات ذلك هو الظلمُ التي متى ظهر في الأمَّة تكون عقوبات طبيعية لا تتخلف فقال–رحمه الله–عند تفسير لقول الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: 102]،:" وَإِهْلَاكُ اللهِ الْأُمَمَ بِالظُّلْمِنَوْعَانِ :

(أَحَدُهُمَا) هُوَ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، وَهِيَ أَنَّ الظُّلْمَ سَبَبٌ لِفَسَادِ الْعُمْرَانِ وَضَعْفِ الْأُمَمِ ، وَلِاسْتِيلَاءِ الْقَوِيَّةِ مِنْهَا عَلَى الضَّعِيفَةِ اسْتِيلَاءً مُوَقَّتًا ، أو دَائِمًا وَهَذَا النَّوْعُ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِلظُّلْمِ بِحَسْبِ سُنَنِ اللهِ فِي الْبَشَرِ "[13]

وعن كيفية ترتب هذه العقوبة على هذا العمل الذي هو الظلم،فإنه على ضربين: فإما أن يظلم الأفرادُ أنفسَهم بإسرافهم في الشهوات فتضعفَ أبدانهم و أخلاقهم ،وإما أن يتسلط الحكام على الأمة بالظلم فيزول بأسها [14] وفي كلا الحالين تكون الأمةُ عرضة لأن يتسلط عليها عدوُّها فيستبيح بيضتها.

فمتى شاع الظلم في الأمة حتى صح أن ينسب إليها الظلم بعمومها فإن ترتب العقوبة عليها يكون أثرا طبيعيا مطردا ،ويؤيد هذا ما ذكرته زينب بنت جحش أَنَّهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً قِيلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[15]،وعقد له ابن خلدون في الفصل الرابع والأربعين في مقدمته الماتعة أسماه "الظلم مؤذن بخراب العمران"[16]وقال ابن تيمية:"فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى : " { اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً } "[17].

عدم اطرادها في عقوبات الأفراد:

ذهبالشيخ–رحمه الله–إلى أن عقوباتِ الأفراد غيرُ مطردة في ترتب الجزاء عليها في الدنيا، ويؤيدُ هذا أن كثيرا من أهل الذنوب يموت ولا يُعَجل بالعقوبة كما هو الواقع، فقال رحمه الله:" أَمَّا عَذَابُ الْأَفْرَادِ فَقَدْ يَتَخَلَّفُ وَيُرْجَأُ إِلَى الْآخِرَةِ "[18]،وقال:" أَنَّ ذُنُوبَ الْأَفْرَادِ مِنْ بَغْيٍ وَظُلْمٍ وَغَيْرِهِمَا لَا يَطَّرِدُ الْعِقَابُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا "[19] والجزاء فقد يظهر الظلم من فرد ولا يرى العذاب المعجل في الدنيا،إلا أن بعض ذنوب الأفراد قد يطَّرد فيها العقوبة والجزاء لأنها تكون **أثرا طبيعيا** لها فقال في إثبات ذلك:"وَالسِّكِّيرُ وَالزَّنَّاءُ لَا

يَسْلَمَانِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي سَبَّبَهَا السُّكْرُ وَالزِّنَا ، وَالْمُقَامِرُ قَلَّمَا يَمُوتُ إِلَّا فَقِيرًا مُعْدَمًا "[20]،فمثلا جعل الله من عقوبات مدمني القمار فقدَ ماله،فكلما أهوى بيده للَعبِه وربحَ،سوَّلتْ له نفسه إعادةَ الكرَّة أُخرى حتى يذهبَ ما في يده،فهنا كان العقاب طبيعيا.

فبالجملة قد رتَّب الله جل وعلا عقوباتٍ على بعض الذنوب،هي**أثر طبيعي** لها متى وُجدت المعاصي تلتْها العقوبات.

أ–نماذج منجزاء الدنيا على ضوء القاعدة في تفسير المنار:

لله جل وعلا عقوباتٌ حكيمة تخضع للعدل فلا تحيد عنه،وتتبع سننا طبيعية لا تعدل عنه،فعلى العباد أن يجتهدوا في إدراكها حتى لا يكون الشقاءُ نصيبَهم،ومن هنا سنورد بعض العقوباتِ التي ربطها رشيد رضا بأسبابها الطبيعية ،وكما سيلْحظ القارئُ هنا أني سأقتصر على شق العقوبات دونَ شقِّ المثوبة على أن كليهما داخلان في الجزاء مراعاةً للاختصار:

1–**الشقاق** :

فمن العقوبات التي يسلّطها الله على بعض الناس هو الشقاق المفضي في الغالب إلى التَّمزق والتشتت ،فهو إذن نتيجة طبيعية للاختلاف وليست جزافا، ومن هنا قال الشيخ–رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[البقرة: 176]:" الشِّقَاقُ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِلِاخْتِلَافِ ، وَالِاخْتِلَافُ فِي الْأُمَّةِ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِلتَّقْلِيدِ وَالِانْتِصَارِ لِلرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَنْدَادًا – وَلَوْ بِدُونِ رِضَاهُمْ وَلَا إِذْنِهِمْ – إِذْ لَوْلَا التَّقْلِيدُ لَسَهُلَ عَلَى الْأُمَّةِ [21]، فإن الناس إذا اختلفوا فإن كلا منهم ينحاز إلى من يؤازره ،فيكثر بسبب ذلك الشقاقُ ،**قال** السعدي:"{ لَفِي شِقَاقٍ } أي: محادة، { بَعِيدٍ } عن الحق ،لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم"[22].

2–عقوبة آدم عليه السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾[الأعراف:23–24]لما أذنب آدمُ عليه السلام بأكله من الشجرة التي نهاه الله عنها ترتَّب على ذلك أمران:طلبه المغفرة من الله حتى يزول أثرُ المعصية من نفسه فلا يكونَ محلَّ سُخْط من الله، فغفر الله له ثم اجتباه وهداه، لكن مع ذلك أخرج من الجنة،وفي ذلك يقول الشيخ رشيد:" وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْعِقَابِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي طَبِيعَةِ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ **أَثَرًا طَبِيعِيًّا** لِلْعَمَلِ السَّيِّئِ ، مُتَرَتِّبًا عَلَيْهِ تَرَتُّبَ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ"[23]

3–عقوبة الحذر و الإشفاق والإركاس:

قال تعالى ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾التوبة: ٦٤،وقال:﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: 88]

من أشد العقاب الذي يُسلَّط على بعض العباد هو فقدانُهم لبرد الإيمان والطمأنينة ،وتجرعهم لمرارة الحذر والإشفاق،لكنَّ هذا الحذرَ والإشفاقَ مردُّه إلى وجود ما يقتضيه من الشك والريب،وهذا ما يقرره رشيد رضا بقوله :" هَذَا الْحَذَرُ وَالْإِشْفَاقُ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِلشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ"[24]

وقرره المراغي:"وهذا الحذر والإشفاق أثر طبيعى للشك والارتياب، إذ هم كانوا شاكين مرتابين فى الوحى ورسالة الرسول ولم يكونوا موقنين بشيء من الإيمان ولا من الكفر، فهم مذبذبون لا هم بالمؤمنين الموقنين، ولا بالكافرين الجازمين بالكفر، ولو كانوا على واحد منهما لما خطر لهم الخوف على بال، إذ تكون قلوبهم مطمئنة بأحدالأمرين"[25].

وقال رشيد رضا عن مرد الإركاس:" وَقَدْ أَسْنَدَ اللهُ – تَعَالَى – فِعْلَ هَذَا الْإِرْكَاسِ إِلَيْهِ وَقَرَنَهُ بِسَبَبِهِ، وَهُوَ كَسْبُ أُولَئِكَ الْمُرْتَكِسِينَ لِلسَّيِّئَاتِ وَالدَّنَايَا مِنْ قَبْلُ حَتَّى فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ"[26].

فهو سبب طبيعي وليس من قبيل عقوبات الحكام بأي عقاب،قال ابن القيم:" وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وإن إركاسه لهم كان بسبب كسبهموأعمالهم"[27]

4–عقوبة الرعب:

قَالَ تَعَالَى:﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران:151].

إن الرعبَ الذي يسلطه الله على الكفار لا يخرج عن الأسباب الطبيعية إلى الأسباب الوضعية كما يحسب بعض الناس،قال رشيد رضا:" فَالْإِشْرَاكُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا طَبِيعِيًّا لِوُقُوعِ الرُّعْبِ فِي الْقَلْبِ"[28]*فإذا استمات المؤمنون في الدفاع عن الدين،وهم على قوة اليقين والإذعان والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله وغير ذلك، حصل رعب للمشركين* [29]وبهذا تفهمُ استخفاف كثير من الكفار بالمؤمنين فضلا عن أن يُرعبوا منهم، ولا تتعجبُ من رؤية المسلمين حين لايثبتون على أمر الله لا يلقي أعداؤهم لهم بالا.

قال ابن عاشور–رحمه الله–في تفسير الرعب:" وهذا جزاء دنيوي رتّبهُالله تعالى على الإشراك به ومن حكمته تعالى أن رتّب على الأمور الخبيثة آثاراً خبيثة"[30]

ب–نماذج من جزاء الآخرة على ضوء القاعدة من تفسير المنار:

1–الموت على الكفر:

الموت هو قنطرة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة،وموت العبد على الكفر أو الإيمان ليس أمرا اعتباطيا وإنما هوَ أثر طبيعي لما كان عليه من عمل في سالف أيامه ، فلن يُسلب أحد الإيمانَ دون أن تكون له سريرة سوء بينه وبين الله، لهذا قال رشيد رضا فيمن مات على الكفر عند قوله تعالى: **﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾**[التوبة: 125]:"اسْتَحْوَذَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَرَسَخَ فِيهِمْ. فَكَانَ مُقْتَضَى سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي **تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ** فِي صِفَاتِ النَّفْسِ أَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ،وَسَيَمُوتُ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ وَهُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِالْكُفْرِ"[31]،فأفعال العباد تؤثر في صفاتهم ،ثم صفاتهم تؤثر في أعمالهم، لهذا كان من عاش على شيء مات عليه.

2-إحباط عمل المشرك وخلوده في النار:

إذا أشرك العبد بمولاه و مات مشركا لم ينتفع بما قدَّمه من عمل صالحٍ،فقال رشيد رضا ذلك

بقوله:"أن عَذَابَ النَّارِ الدَّائِمَ **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِتَدْسِيَةِ النَّفْسِ بِالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ "[32]، فالشرك هو منتهى الشرور ،وأي خير لايقْوى على تخفيفه[33]

وقال رحمه الله:" وَقَدْ سَأَلَنِي رَجُلٌ مِنْ أَذْكِيَاءِ الْإِنْكِلِيزِ : هَلْ يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللهِ أَنْ يُعَذِّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ عَلَى ذُنُوبِهِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ضَعْفِهِ ؟ قُلْتُ إِنَّ الشِّرْكَ بِاللهِ وَالْكُفْرَ بِنِعَمِهِ، وَاقْتِرَافَ الْخَطَايَا الْمُخَالِفَةِ لِشَرَائِعِهِ وَلِلْوِجْدَانِ الْفِطْرِيِّ فِي الْإِنْسَانِ ، تُدَنِّسُ نَفْسَ فَاعِلِهَا وَتُفْسِدُهَا بِمَا يَجْعَلُهَا غَيْرَ أَهْلٍ لِلنَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ الْخَاصِّ بِالْأَنْفُسِ الزَّكِيَّةِ ، فَيَكُونُ الْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ **أَثَرًا طَبِيعِيًّا**فَقَالَ: إِذَا كَانَ سَبَبُ الْعَذَابِ مِنَ الدَّاخِلِ لَا مِنَ الْخَارِجِ فَهُوَ مَعْقُولٌ [34]أي أن العمل أثر على نفسه فأحاط بعلمها وشعورها واستغرق وجدانها [35]

فالشركُ منتهى الشرور وغاية الدَّنس الذي تتلطَّخُ به الإنسانية،فما يَحلُّ بنفس الرجل من التَّدسيةِ لا تنهضُ أعمالُ الخير بإزالة ذلك السوادالذي علق به،كمن اعتدي على أخيه فلا يغفرْ له أخوه بعد ذلك ما أتى به من صنائع المعروف له،خاصَّة ما تعلقَّ بمسائل الشرف .

3-تفاوت الدركات:

مما تقرر في القرآن أن النارَدركاتٌ كما أن الجنة درجاتٌ ،لكن من أهانه الله وأخزاه بورود النارِ، فإندركته تكون على حسب تأثير أعماله في نفسه ، وما حدث لها من تدسية، وهذا ما قرره رشيد بقوله:" وَهَذِهِ الدَّرَجَاتُ لَا تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ عَطَاءً مُؤْتَنَفًا وَكَيْلًا جُزَافًا، وَإِنَّمَا تَكُونُ **أَثَرًا طَبِيعِيًّا** لِارْتِقَاءِ الْأَرْوَاحِ وَتَدَلِّيهَا هُنَا بِالْأَعْمَالِ "[36]. فتدلي المعَذَّب في النار *يكون على حسب إيغاله في الشَّر وآثار سيِّئاته في الناس وما يتبع ذلك.*

أهميةإدراك القاعدة في حياة المسلمين:

أثار رشيد رضا في تفسيره بعض الفوائد المتعلقة بفهم سنن الله ،لا سيما هذه القاعدة التي نحن بصدد البحث فيها،ومن هذه الفوائدمايلي:

1-**وجوب بذل أسباب التقدم والعز:**

ارتقاء الشعوب هو **أثر طبيعي** لإحسان أعمالها في أسباب المعاش وغير ذلك من أسباب الرُّقي [37]و في هذا ردٌ على من ظنَّ أن سبيل التقدم غصُّ الناس في المساجد دون الأخذ بأسباب الرُّقي التي وصل إليها البشر،وإنما تدفعُ بيوت الله أصحابها إلى بذل النفوس لخدمة مصالح الأمة.

2-**سنن الله لا تحابي مسلما لإسلامه ولا تظلم كافرا لكفره:**

قال رشيد رضا في تفسيره لقوله تعالى "من يعمل سوءا يجز به" لِأَنَّ الْجَزَاءَ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى **أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ** لِلْعَمَلِ لَا يَتَخَلَّفُ فِي اتِّبَاعِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَنْزِلُ بِغَيْرِهِمْ كَمَا يَتَوَهَّمُ أَصْحَابُ الْأَمَانِيِّ وَالظُّنُونِ "،و لما استفهم المسلمون عن سبب الهزيمة في غزوة أحد بقولهم أنى هذا أجابهم الله بأنه من عند أنفسهم ، وهذا "بِاعْتِبَارِ **سَبَبِهِ** وَهُوَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مَنِ الْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْعِصْيَانِ "[38]فجعل الله الفشل والتنازع والعصيان **سببا طبيعيا** في الهزيمة،فإذا علم المسلمون هذا اجتهدوا في اجتثاث منابت الشر.

4-**ردٌ على بعض الفرق كالجبرية**[39]:

قالت الجبرية في أمثال قوله تعالى "﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[المائدة:13]،معناه أن قسوة القلب خلقها الله ابتداء عقابا لهم،وليست ناجمة عن أعمال اختيارية لهم،[40]

وهو جهل بهذه السنة العظيمة أن الله رتَّب على نقضِ الميثاق اللعنةَ وقسوةَ القلوب،فهو **سبب طبيعيٌ** له متى تحقق العمل تبعه الجزاء.

5-**الحفاظ على الملك والعز:**

يفهمُ بعض الناس من قوله تعالى﴿ **وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[آل عمران: 26]أن هذا لا يندرج تحت قاعدة البحث ،وليس الأمرُ كذلك ،بل رتب الله **أسبابا طبيعية** متى عملها أدركته سنة الله فقال رشيد رضا:" وَمِنْ أَسْبَابِهِ كَثْرَةُ الْأَعْوَانِ وَمِلْكُ الْقُلُوبِ بِالْجَاهِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ لِلنَّاسِ وَسَعَةُ الرِّزْقِ مَعَ التَّوْفِيقِ لِلْإِحْسَانِ"[41].

فمن أراد من الله أن يعزَّه فليسأل الله ذلك،ثم يتبعْ سنَّته في ذلك من اختيار كثرة الأعوان،وتعليم الناس ونفعهم بجاهه ورزقه وسائر ضروب الإحسان.

6-مظهر من مظاهر رحمة الله:

إن من أدرك هذه القاعدة نال من رحمة الله ما يطمئن به إلى عدل الله ونعمته، فمهما أصابه من عقوبة بادر في تفتيش نفسه غيرَ مُتهمٍ لربه،ساعيا في معرفة الأسباب الطبيعية التي أنشأت هذه العقوبةَ، فيسعى في إصلاح نفسه والتوبة لرب العالمين،قال رشيد رضا:" مِنْ أُصُولِ دِينِهِ الْقَوِيمِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرُ **رَحْمَتِهِ** الْعُلْيَا الْمُوَافِقُ لِفِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا أَنَّ لِأَعْمَالِ الْبَشَرِ جَزَاءً فِطْرِيًّا هُوَ **أَثَرٌ لَازِمٌ** لِلْعَمَلِ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ فِي إِصْلَاحِ الْأَنْفُسِ أَوْ إِفْسَادِهَا "[42]، *فمن رحمة الله بعباده أن تقرَّ أعينهم بعدل الله جل وعلا تطلع إلى مزيد فضله،فيكون الجزاء سببا طبيعيا على عملها.*

خاتمة:

إن الله عز وجل بحكمته وعدله ، جعل سننا في الأرض ، فما من أمة أرادت السعادة في الدارين، فما عليها إلا التحققَ بسننه، وإلا فإن مآلها إلتسلط الأعداء و الاضمحلال متى جعلتها وراءها ظهريا كما يُقر به الحال،فجزاء الله لعباده توفيقا وإضلالا قوةً وضعفا ذلا وعزا ،إنما يخضع لسنن حكيمة وأسباب طبيعية لا كما يتصور بعضُ من فقدَ من الرشاد حظَّه،

وأصاب العمى منهُ لُبَّه.

ومن أهم ما وصل إليه البحث من نتائجَ ما يلي:

1- اعتناء رشيد بقاعدة "الجزاء أثر طبيعي في العمل"في تفسير المنار،

2- الجزاء الطبيعي يجري وَفْقَ قانون السببية،و الجزاء الوضعي يشبه جزاءَ الحكام على الناس.

3- الفرق بين" الجزاء من جنس العمل " وقاعدة البحث،أن الأولى تتماثل فيها العقوبة والجزاء،أما قاعدة البحث،فتنحصر في دراسة آثار العمل، مهما كان الجزاء من جنسه أم ليس من جنسه.

4-اطراد الجزاء على عموم الأمة في الدنيا،وعدمُ اطراده على الفرد فيها

5- توظيف محمد رشيد رضا للقاعدة خلال التفسير بشكل كبير،والتدليل عليها بجزاء الدنيا والآخرة.

6-انتفاء الفرد والمجتمع بالعلم بهذه المسألة.

وهذا ما دفع بالسيد رشيد رضا أنيُعنى في تفسيره بإبراز قاعدة "الجزاء وأثره الطبيعي في العمل،وجزاءِ اللهِ عليها في الدنيا وفي الآخرة وفوائدِها المرجوة منها،والله من وراء القصد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(1)منها بحث بعنوان:مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي– السيد محمد رشيد رضا نموذجاً،حازم زكريا محيي الدين، دار النوادر للنشر والتوزيع,2007

(2)تفسير المنار(255/4) ط:دار إحياء التراث العربي.ت ط:2010م.

(3)تفسير المنار(354/5)

(4)تفسير المنار(499/9)

(5)تفسير المنار(243/4)

(6) تفسير المنار(481/8)

(7)أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير،ص:299،مكتبة العلوم والحكم،ط1 ،2002م

(8)ينظر تفسير المراغي(226/4)،(165/5)،(48/10)شط:شركة مطبعة ومكتبة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر،ط1: 1946م

(9)تفسير المنار(255/4)

(10)إعلام الموقعين عن رب العالمين ،ابن القيم (150/1)

(11)تفسير المنار(332/1)

(12)تفسير المنار(395/9)

(13)تفسير المنار(270/11)

(14)تفسير المنار،نفس الصفحة.

(15)صحيح البخاري،باب:قول النبي صلى الله عليه وسلم:ويل للعرب من شر قد اقترب،(48/9)،ط:طوق النجاة.

صحيح مسلم،كتاب الفتن وأشراط الساعة،باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج،ط:دار الكتب العلمية.

)المقدمة،ابن خلدون(9/5)ط:خزانة ابن خلدون.16(

)الحسبة في الإسلام لابن تيمية،ص:7،ط:دار الكتب العلمية. 17

)تفسير المنار(395/9).18(

)تفسير المنار(294/11).19(

(20)تفسير المنار(395/9)

(21)تفسير المنار(94/2)

)تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان،السعدي (128/1)ط:دار ابن الجوزي.2(2

(23)تفسير المنار(332/8)

(24)تفسير المنار(463/10)

(25)تفسير المراغي(152/10).

(26)تفسير المنار(263/5)

(27)التفسير القيم،ص:226،دار الكتب العلمية.

(28)تفسير المنار(151/4)

(29)تفسير المنار(152/4)

(30)التحرير والتنوير،ابن عاشور(123/2–124)ط:دار سحنون للنشر والتوزيع.

(31)تفسير المنار(72/11)

(32)تفسير المنار(130/12)

(33)تفسير المنار(354/5)

(34)تفسير المنار(259/5)

(35)تفسير المنار(237/3)

(36)تفسير المنار(184/4)

(37)تفسير المنار((237/3)

(38)تفسير المنار(155/4)

(39)الجبرية:فرقة من الفرق،ينفون الفعل حقيقة عن العباد ،ويضيفونه لله،والجبريةأصناف.الملل والنحل،الشهرستاني،ص:97،ط،3:دار المعرفة،1414هـ ،بيروت.

(40)تفسير المنار(241/6)

(41)تفسير المنار(239/3)

(42)تفسير المنار(279/7)